

المجلد: 05 / العدد: 02 / (2021)، ص 236/226

القيم الوطنية وترسيخها في أدب الطفل الجزائري: الحكاية الشعبية التاريخية

وقصص الثورة منطقة الونشريس نموذجاً.

National values and their consolidation in Algerian children's literature:

The historical folk tale and the stories of the revolution – the region of Ouarsenisas a model-

د. فتوح محمود

mahmoud.fettouh@gmail.com

جامعة تيسمسيلت

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2021/12/02

د. قردان الميلود*

mouloudradwane@hotmail.com

جامعة تيسمسيلت

(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2021/06/27

تاريخ القبول: 2021/08/26

ملخص:

تعد القيم الوطنية من القيم الأساسية التي يجب أن يتشبع بها الطفل عموماً، ولا سبيل لذلك إلا عن طريق أدب الأطفال المتمثل جزء مهم منه، وهو الحكيم والقص بوصفها الوسيطتين المناسبين لشريحة حساسة من المتلقين ألا وهي شريحة الأطفال، وقد ركزنا في هذا المقال على الحكاية الشعبية وقصص الثورة التحريرية وأثرها في تعزيز قيم حب الوطن في نفسية الطفل الجزائري، وذلك من خلال عرض نموذج حي من أطفال الثورة الذي ما تزال ذاكرته متشعبة بألوان متنوعة الحكاية الشعبية الثورية في منطقة الونشريس أحد معاقل ثورة التحرير المباركة.

كلمات مفتاحية: القيم، أدب الطفل، الوطن، الونشريس، الثورة، الحكاية الشعبية، الأغنية الثورية، التاريخ.

Abstract:

National values are fundamental values with which children must be generally saturated, and this can only be done through children's literature, represented by an important part of it, which is storytelling, considering it the appropriate mean for a sensitive section of recipients, which is the children's section, We focused in this article on the historical folk tale, and stories of the revolution, and its impact on the promotion of the values of national love in the psyche of Algerian children, and that is by presenting a living example of the children of the revolution, whose memory is still saturated with various colors of the popular, revolutionary

*المؤلف المرسل.

folk tale in the region of Ouarsenis, one of the strongholds of the blessed Liberation Revolution.

Keywords: Values; children's literature; homeland; Ouarsenis; the revolution; The Historical folk tale; history; Revolutionary songs.

-مقدمة:

إن أدب الأطفال كشكل من أشكال التعبير الإنساني، يشكل رافدا مهما من روافد بناء شخصية الطفل، عقليا ووجدانيا ومعرفيا، لأنه بالأساس موجه فئة أو جمهور معين من المتلقين وهو جمهور الأطفال، تختلف مستويات إدراكهم وتفاوت حسب مستويات تفكيرهم (المستوى النفسي المستوى العقلي، المستوى اللغوي)، حسب اختلاف الفروق الفردية لديهم. ولما كان الطفل صفحة ناصعة البياض فإن قابلية للاستيعاب تكون أكثر وأوفر حظا من المتلقي الذي يعيش مرحلة عمرية تجاوزت مرحلة الطفولة، كما أنه لا يخفى على الدارس ضرورة الحتمية لأدب الطفل في سن مبكرة، فكما يشبع الطفل حاجاته البيولوجية من طعام ونوم فهو كذلك بحاجة لإشباع نهم القراءة لديه، وهذا ما أشار إليه الشاعر البلغاري ران بوسيليك بقوله: الأدب للأطفال كحليب الأم والهواء النقي اللذين لا بد من توافرها (1).

ومادام حديثنا يقتصر على هذه الشريحة الحساسة من المجتمع، فإننا سنتناول موضوع القيم الوطنية وترسيخها في نفس الطفل الجزائري، ولعل الكثير منا يحنّ إلى ذلك الزمن الجميل الذي كنا نتوسد فيه حجور أمهاتنا وجداتنا، وهن يروين لنا بطولات المجاهدين أيام ثورة التحرير المباركة، مطعمين حكاياتهن بأبيات شعرية شعبية تتغنى وتمجد تضحيات المجاهدين الشهداء، حينها كنا نتمنى لو يختزل الزمن لحظة واحدة، وترجع عقارب الساعة إلى الوراء لنعيش تلك اللحظة، ونحمل الرشاش ونقاتل العدو الفرنسي، كنا نشعر بسيل جارف من الحماس والتضحية ونكران الذات، ويتضاعف الشعور الوجداني عندما نسمع قصصا عن أطفال في سننا لكنهم مجاهدون، تكفلوا بنقل الرسائل بين المجاهدين أو رصد تحركات العدو، كانت خيالنا تسافر بعيدا بعيدا لتحلق في جو مثالي من فداء الوطن وعشقه، في الغالب الأعم كان النعاس يغازل أجناسنا فنغفو على تلك الملاحم البطولية وصور التضحية، لنستيقظ صباحا مفعمين بحب الوطن والتضحية في سبيله عن طريق فعل المواطنة، فزمن الرشاش ولى ونحن في زمن القلم والسلوك الحضاري، أما عن القصّ الثوري فلاشك أن له جانب كبير في صقل شخصية الطفل وزرع روح المواطنة بداخله في سن مبكرة، فقصص شجاعة العربي بن مهدي وصموده في وجه جلاديه، وصورة الطفل عمر ياسف الذي استشهد في تفجير المنزل الذي كان بداخله رفقة حسيبة بن بوعلي وعلي لابوانت في معركة الجزائر، كذلك صورة الطفل الفدائي مصطفى في قصة "انتظار لأبي العيد دودو"، الذي ألقى قبلة يدوية على مخمرة ليلية كان يرتادها جنود العدو الفرنسي وبعض العملاء فأوقع عددا منهم بين قتيل وجريح، فقصص كهذه لها أثر كبير في تنمية قيم المواطنة لدى الطفل الجزائري.

من أجل هذا تحاول أن تنهض هذه المداخلة المتواضعة بالإجابة على جملة من الأسئلة أهمها: كيف ساهمت الحكاية الشعبية التاريخية في غرس روح الوطنية لدى الطفل؟ وما مدى تجاوب القصص الثوري مع احتياجات الطفل الجزائري المعرفية والوجدانية؟ وكيف رسخت الأغنية الثورية القيم الوطنية لدى

طفل الثورة ؟ إلى أي مدى نجحت الأغنية الثورية في تجسيد صورة المستعمر والعميل في مقابل صورة جندي جيش التحرير والشهيد؟

01 / القيم الوطنية من خلال الحكاية الشعبية الثورية:

الحكاية الشعبية هي عمل أدبي يتم نقله من جيل إلى جيل شفهيًا، ولأن اسمراريتها مرهونة بهذا النقل المتواصل فإنها عرضة للتعديل بالإضافة أو الحذف أو للعاملين معا، وهذا ما يفسر تغير الحكاية من جيل لجيل و من فرد لآخر أو من مجموعة بشرية لأخرى ، كنتيجة طبيعية لهذا التناقل الشفوي الدائم، والأدب الشعبي الجزائري غني بدوره بهذا الجنس الأدبي الراقي والذي ارتبط في الذاكرة الجماعية لجمهور المتلقين بكبار السن من الشيوخ والجدات على وجه الخصوص اللواتي يروين هاته الحكايات لأحفادهن الأطفال في ليالي الشتاء الباردة، وهذا في حد ذاته يشكل عاملا مهما من عوامل التماسك الأسري الذي هبت عليه رياح التكنولوجيا فقلصت من دوره كثيرا، وعادة ما يختار الزمكان لسرد هذه الحكايات بعناية ودقة، لاسيما في الليل الذي يساهم سكونه في توسيع خيالات الطفل وقابليته للاستيعاب بسبب حضوره الذهني واستعداده النفسي الكبير للتجاوب مع ما تلتقطه أذناه إلى أن يأخذه النوم العميق.

والحق أن الحكاية الشعبية في الجزائر ليست وليدة اليوم بل هي قديمة قدم الإنسان الذي عمّر هذه الأرض منذ فجر التاريخ، ولو قلنا صفحات التاريخ لوجدنا أدبنا العربي- والأدب الجزائري فرع منه- غني بمثل هذا اللون الأدبي البديع أو بما يقاربه ويشبهه على الأقل كالسير الشعبية، بدءا من سيرة الزبير سالم وعنترة بن شداد، وسيف بن ذي يزن، والسيرة الهلالية وغيرها من الحكايات الشعبية التي حفظتها الذاكرة الشعبية على مرّ الزمن وتعاقب الأيام وصروف الدهر. ولا يخفى على أي دارس مهتم بما يتلقاه الطفل الأهمية البالغة للحكاية الشعبية ودورها في صقل وبناء شخصية الطفل المستقبلية لأن " قصص البطولات الوطنية والدينية تُحكى لكي ليستحضر الماضي العظيم، وتعقد صلته بالحاضر، ولتوقظ الشعور بالتقدير، والرغبة في التقليد والمنافسة اللذين هما مصدرا الإلهام في مرحلة الطفولة، وتهدف إلى الإعجاب بالأبطال وحب الوطن"2.

والحكاية الشعبية الجزائرية بمختلف مستوياتها ساهمت في كثير من الأحيان في زرع الوعي الوطني لدى الطفل الجزائري سواء زمن الاستعمار الفرنسي أو طفل الاستقلال، فلا شك أن الرعيل الأول من مفجري ثورة التحرير المباركة كان قد تلقى قسطا وافرا من المخزون التراثي الملحمي الجزائري الذي سطره رجال المقاومة الشعبية مع أول قدم لجندي فرنسي وطأت ثرى هذا الوطن المغدى، فقد تناقلت الرواية الشفوية بطولات الأمير عبد القادر، والحاج أحمد باي، والشيخ الحداد، والشيخ بوعمامة، ولالة فاطمة نسومر، الزعماء الروحانيون للروايات الدينية الذين حملوا لواء الجهاد في مختلف ربوع الوطن.

فصورة الأمير عبد القادر واستبساله في الجهاد قد طبعت لدى كل الأجيال المتعاقبة التي تلت مرحلة المقاومة الشعبية، بطابع الفخر من خلال النموذج الثائر المكافح في هذه الشخصية التاريخية، إذ أن شخصية بوزن الأمير عبد القادر قد أضفت عليها الذاكرة الشعبية هالة من القداسة والتبجيل لهذا الرجل الروحي الذي صورته الحكاية الشعبية لدى الطفل في صورة بطل شعبي أسطوري يختلف تماما عما سمعه الطفل عن سيرة عنترة الشجاع، أو سيف بن ذي يزن الذي أعاد مجد العرب المسلوب من الفرس، أو حتى

الزير سالم الذي قضى شطراً من عمره في البحث عن ثأر أخيه، فصورة الأمير -مثلما صورتها رواية الحكاية الشعبية على لسان الجدّات- تلخصت في ذلك الرجل الوقور الذي يمتطي صهوة جواده، وقد زادته تلك اللحية السوداء مهابة ووقارا وهو يمتشق سيفه، فارس لا يعرف الانهزام، وكأنّه يمتلك قوة خفية تسانده، تقاوت معه الفرنسيين، تلحق بهم الهزائم النكراء، وربما بضربة سيف واحدة يحصد الأمير عشرات الرقاب لجنود فرنسيين، وقد تستعين الراوية بشخصية علي بن أبي طالب الذي يؤازر الأمير في حربه ضد الكفار ويبيدهم في مشهد لا نسمع عنه إلا في حلقات المدّاحين في الأسواق الشعبية والمواسم، وهنا لا بدّ من التنبيه على خطورة الجانب الروحي ودوره المهم في زرع بذور الثقة في نفس الطفل، و محور الروح الانهزامية داخله، من خلال تصوير الأمير عبد القادر في صورة بطل لا يعرف الانهزام، بطل مؤيد بقوة روحية تجعله في منأى عن يد الاستعمار وعيونه.

ومما يزيد في ترسيخ هذه الصورة المثالية لهذا البطل الوطني، تلك الانتصارات الباهرة التي كان يحرزها جيش الأمير في مواقع ومعارك كثيرة. إن تسويق هذه الشخصية في هاته الصورة تشحن الطفل بعواطف وطنية صادقة لما يسمعها وتترك في نفسه الأثر البالغ في تقليدها، وتقضي أثرها، ربما ليصبح هذا الطفل بطلاً قومياً مثلما سمعه عن الأمير "الأجل ذلك يتعلق الأطفال بالقصة ويقبلون على قراءتها أو يستمعون إليها ويتتبعون حوادثها، ويعيشون مع أبطالها سواء كان هؤلاء الأبطال من البشر أو من المخلوقات العجيبة أو الجماد، ويثيرهم ما بها من خيال وسحر فنجدهم يتجاوبون مع أبطالها، وكثيراً ما يحاولون القيام بالأعمال التي قام بها بطل القصة الذي أصبح موضوع إعجاب وتقدير وربما مثلاً أعلى للطفل يحاول أن يقتدي به و يقلد أعماله وطريقة حديثه وتصرفاته"3.

ولعل صورة القادة من زعماء الثورات الشعبية الآخرين (كالمقراني والشيخ الحداد وبومعزة وبوبغلة...) لا تقل عن صورة الأمير عبد القادر، فقد أضفت الحكاية الشعبية هالة من القداسة على شخصية لالا فاطمة نسومر، هذه العذراء التي اختارت مقارعة جبابرة الاستعمار على التمتع بفيض أنوثتها وهي في عزّ شبابه، فقد صورتها الحكاية الشعبية في صورة من النُسك والتبتّل لا تختلف كثيراً عن صورة مريم البتول العذراء التي صانت شرفها فكرمها الله بكلمة منه. هذه الحكاية الشعبية التاريخية فيها جانب كبير من الواقعية، زرعت في نفوس بنيات الجزائر لا سيما زمن الاستعمار الفرنسي معاني العفة والشرف والتمسك بالأخلاق الفاضلة ناهيك عن روح التحدي والصمود والتضحية في سبيل الوطن والمجسدة من خلال هاته المرأة الحديدية التي عقرت جبين أكابر جنرالات فرنسا وزبائنتها، لالة فاطمة نسومر هذه الشخصية النموذجية أنتجت لنا نماذج ثورية من طراز حسبية بن بوعلي، فضيلة سعدان، حميلة بوخيرد وغيرهن كثير.

إنّ هذه الحكايات الشعبية التي كان يتلاقها الطفل الجزائري جعلت منه طفلاً وطنياً عاشقاً لأرضه وبنياً وطنياً وبالمقابل حانقاً على المستعمر الفرنسي كافراً به، بل ويفكر في وسائل الخلاص منه مع أول فرصة تتهيأ له. وبمجرد ما فتح عينيه على منابع الوطنية ممثلة في الكشافة الإسلامية و جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب بزعامة مصالي الحاج، انكبّ هذا الطفل الرجل إن صح التعبير على الاعتراف من ينبوع الوطنية وصقل ما له من استعدادات وطنية سابقة كان قد اكتسبها في محيطه العائلي من خلال الحكاية الشعبية التاريخية، فقد أضحى طفل العشرينيات والثلاثينيات شاباً مجاهداً يده على الزناد في غرة

نوفمبر 1954، وقد اكتمل نضوجه الوطني وتشكل وعيه القومي. ومع اندلاع ثورة التحرير المباركة وما أحدثته من زخم على المستويين التحرري والعالمي، وما نتج عنها من هزات عنيفة على قوى الهيمنة الاستدمارية في العالم، وبالنظر لما خلفته من حصيلة ثقيلة من الشهداء مقارنة بعدد سكان الجزائر حينها، فإن الشعب الجزائري التفّ حول ثورته واحتضنها، وبلغ من عشق وهيام الجزائريين بثورتهم ووطنهم أن قال شاعر الثورة مفدي زكرياء واصفا ثورة التحرير المباركة:

يا ثورة حار فيها الزمان وفي شعبها الهادئ الثائر.4

ومعارضنا الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم فيقول متحدثا عن الجزائر:

وقل الجزائر واصغ إن ذكر اسمها تجد الجابرة ساجدين وركّعا.5

كل هذا جعل من الثورة الجزائرية المعين الذي لا ينضب بالنسبة للحكاية الشعبية الثورية، فقد ألهمت انتصارات الثوار والمجاهدين في الجبال و المدن والمداشر الأخيلة الشعبية، وفتحت الباب واسعا أمامها لنسج حكايات وطنية ثورية موجهة لجمهور الأطفال، وذلك بغية إبعاد شبح الخوف عنهم وغرس سجية الشجاعة والتضحية في سبيل الوطن في نفوسهم، فقد عاشت الحكاية الشعبية الثورية عصرها الذهبي أيام الثورة التحريرية المباركة، ففي منطقة الونشريس مثلا تحفظ الذاكرة الشعبية قصة ذلك المعمر الإسباني " غارسيا " GARCIA الذي بلغ مسامعه أن مجموعة من المجاهدين تتردد أحيانا على زاوية لحفظ القرآن فتتزوج بما تحتاجه من مؤنة، وتخزن الأسلحة، وتتقصى أخبار جنود الاستدمار وتحركاتهم بالمنطقة، فزرع العدو عيوننا له ليلغوه بساعة قدوم المجاهدين وكان له ذلك، فاتجه " GARCIA " بقوة عسكرية مدججة بأعتى الأسلحة وقافلة من الآليات والمدرعات، ولما بلغ ذلك المكان ضرب عليه حصارا خانقا، فتجهز المجاهدون لملاقاة العدو ودحره وهم يطلبون إحدى الحسينيين: الشهادة أو الانتصار، غير أن شيخ الزاوية كان له رأي آخر فقد طلب من أحد الطلاب نقر الدف بقوة وفي حركة سريعة متتالية، وهو شكل من أشكال السماع الصوفي، فمع توالي حركة نقر الدّف انخرط المعمر " GARCIA " في موجة من الرقص الهستيري، أو نوع من الجذب كما يسميه جمهور المتصوفة، ولما انتبه " GARCIA " مما كان فيه أصرّ من جديد على تفتيش المدرسة، غير أن الشيخ لوّح بشق برونوسه الأيمن في اتجاه القبلة فاحتترقت آليات المستدمر وفّر جنوده مذعورين.6.

إن هذه القصة على ما فيها من وقائع تتنافى مع معطيات الواقع، إلا أن فيها شيء من التلازم بين مفهوم الجهاد والثورة من جهة، وبين الجانب الروحي الخفي الذي يشد من أزر المجاهدين في أحلك الأوقات من جهة ثانية.

وتروى هذه الحكاية الشعبية بصيغة أخرى فيها كثير من الواقعية، وهي أن هذا المتعجرف " GARCIA " نصب كميننا للمجاهدين وهم بداخل الزاوية، و لما علموا بذلك جهزوا أنفسهم وتوزعوا عبر منافذ الزاوية واشتبكوا مع جنود الاستدمار وقتنا طويلا، واستبسلا في مقارعتهم فاستشهد منهم من استشهد، غير أن النصر كان حليفهم وألحقوا هزيمة نكراء بقوات العدو، وأحرقوا كل الآليات عن آخرها، ولازالت هياكلها متفحمة إلى حد الساعة، هذا على الرغم من قلة عددهم وعدتهم.7.

القيم الوطنية وترسيخها في أدب الطفل الجزائري: الحكاية الشعبية التاريخية وقصص الثورة منطقة الونشريس نموذجاً.

ولعل الحكاية في صيغتها الثانية الأنسب في نظرنا والأصلح للطفل ومستواه العقلي، لأن الحكاية بالصيغة الأولى ربما تنمي في الطفل روح التواكل والعجز والكسل وهذا ما يجب الانتباه إليه ممن حملوا على عاتقهم الكتابة لهذا الجمهور الخطير والحساس من المجتمع، فواجبهم أن يزرعوا بداخلهم قيم الاعتماد على النفس ومواجهة الصعاب بتحدّ، وصبر، ومثابرة، مع الإخلاص والتوكل على الله، لأن الطفل آلة مسجلة تلتقط الأصوات والكلمات والسلوكات وتقلدها "...الطفل رادار عجيب إنه يستطيع أن يلتقط ويحس ويدرك أكثر مما نظن بكثير"8.

وقد تُصَبّ الحكاية الشعبية في قالب شعري غنائي مما ييسط مدلولها العام، ويجعلها سهلة الحفظ لدى أطفال الثورة الذين ما فتأت أُلستهم تلهج بآيات الذكر الحكيم، أو بأغان ثورية تجمد الثورة التحريرية المظفرة وزعمائها، لاسيما أحمد بن بلة، وفرحات عباس، وسي المُجد بوقرة، وسي الجليلي بونعام، وتتغنى بطولات المجاهدين وتضحياتهم الأسطورية في سبيل الوطن والكرامة الإنسانية، وبالمقابل رسخت هذه الأغاني الشعبية الثورية صورة المستعمر الفرنسي، مثيرة للشفقة وهو يشحن توابيت جنوده يومياً إلى الوطن الأم، كما صوّرت بدقة حالة الجنون الهستيرى الذي يصيب الاستعمار الفرنسي كلما اشتبك مع بوسائل جيش التحرير إثر كمين أو هجوم على ثكنة أو مركز من مراكز العدو، الذين يزرعون بين صفوفه حالة من الهلع والرعب، كما أن صورة الحركي أو العميل لم تختلف كثيراً عن صورة ولي نعمته، فقد صورته هذه الأغاني الشعبية في أخزى الصور، بعدما تنكر لدينه ووطنه، وباع شرفه بثمن بخس، دراهم معدودة ونياشين وهمية زائفة.

إن هذه الأغاني الشعبية الملحمية والتي طُبعت في ذاكرة طفل الثورة الجزائري منذ ما يربو عن ستين سنة، لدليل قاطع على الأهمية القصوى التي اضطلعت بها هذه الأغاني في تنمية الوعي الثوري لدى الشعب الجزائري بصفة عامة، والطفل الجزائري على وجه الخصوص، لا سيما إذا علمنا أن السواد الأعظم من أبناء الشعب الجزائري كان يتخبط في وحل الجهل والامية، فلم يكن هناك من وسيلة أخرى لنقل الوعي الثوري وسط الجماهير إلا عن طريق الحكاية الشعبية والأنشودة الشعبية الثورية، إذ تعد الوسيلة الأنجع لتبليغ رسالة الثورة الى الشعب الجزائري الذي كان معظمه مشتتا بين الجبال والأحراش، في الوقت الذي استفرد المعمرين بالأراضي الخصبة، وحرموها المدينة على الجزائريين.

02/ القيم الوطنية من خلال الأغنية الشعبية الثورية:

أ/ صورة مجاهدي ثورة التحرير وقادتها لدى الطفل الجزائري من خلال الأغنية الثورية الشعبية:
لم تكن طفولة أبناء الجزائر كطفولة نظرائهم في باقي أصقاع العالم، فقد أبصر طفل الثورة النور على قعقة السلاح، وزئير الطائرات وهي تدك المداشر بأطنان من القنابل، وكثيراً ما داهم جيش المختل قريتهم فعات فيها فساداً، فقتل من قتل، واعتقل من اعتقل، ولربما نجا بنفسه واختبأ في ركن خفي، أو وراء شجرة بلوط، أو في وسط كومة التبن، فتابع عن كثب -مجبوراً- معركة بين جيش التحرير وجيش الاستعمار، وشاهد استبسال المجاهدين وهم يلقنون جنود فرنسا دروساً في التضحية والإباء ونكران الذات، كل هذا يجعل من هذا المجاهد مثلاً أعلى بالنسبة لهذا الطفل وقُدوة له في حياته، وربما أخذه شيء من الآسى والحسرة لعدم قدرته على المشاركة في المعركة فيطلق العنان للسانه منشداً أغان تفتخر بالثوار وتمجدهم.

ومن بين الأغاني الشعبية في منطقة الونشريس التي حفظها أطفال الثورة عن ظهر قلب طوال سنين الكفاح المرير، أغان تصور جنود جيش التحرير وهم في طريقهم الى المعركة:

شُوف للحرب نُحِير هَادُو ولاد جيش التحرير
هَادُو ولاد جيش التحرير نايضين على الحرية⁹

وفي موضع آخر يصفون كتيبة من جيش التحرير الوطني:

أنا قاعة في الكُذبة وصرطت علي كتيبة
في اللبسة جدارمية وفي القفزة مجاهدين¹⁰.

وبفضل الأغنية الشعبية الثورية تشكل الوعي الثوري لدى الجماهير الوطنية حتى أصبح الطفل الجزائري يعرف الزعماء الخمس الذين تمت قرصنة طائرهم يوم 1956/10/22 وأضحى هذا الطفل الجزائري ينشد ترانيم ثورية للرفع من معنويات أحد أشهر قادة الكفاح الوطني أحمد بن بلة وهو في سجنه مع باقي رفاقه¹¹:

قُول لب بلة، بلاك تَننَوِي جيشك راه قُوة، تَقَدت منا وَمَنهيه
يَسَلَم بن بلة وَيَسَلْمُوا غَاشيه مازال طُفَل صغير، و نَعَلُوا كُرسيه
يَسَلَم بن بلة وَيَسَلْمُوا غَاشيه مازال طُفَل صغير، وَيُوضُ الحرب عليه¹².

ويبلغ الوعي الثوري والوطني عند الطفل الجزائري مداه، عندما يلهج لسانه بذكر أول رئيس للحكومة الوطنية الجزائرية، ويبنه عواطفه المتضامنة، بل ويسدي له النصيحة المتمثلة في وجوب كتمان السر فيقول:

قُول لفرحات عباس بلاك تَهْدُرُ قَدَام جناس.
كُرسيْنَا زَاخ لَاباس وَعَدُونَا ذَارَت عليه¹³.

ولعل مما زاد في عشق الطفل الجزائري للثورة الثوار هو ذلك الاحتكاك المباشر بين الطفل وجنود جيش التحرير الوطني وقادتهم، فارتسمت في ذهن الطفل صورة البطل النموذجي من خلال هؤلاء المجاهدين، الذي سنحت له الفرصة للقيامهم، و من لم تسعفه الظروف سمع عنهم قصصا وحكايات أشبه بقصص الأساطير الشعبية للأبطال، ومن بين هؤلاء الشجعان الشهيد سي المجد بوقرة، والشهيد سي المجد بن بوعامة، اللذان قادا الولاية الرابعة، ومن بين ما حفظه أطفال الثورة هذه القطعة الغنائية التي تتغنى بهاتين الشخصيتين العظيمتين:

يا مُجَد يا المُعَبَّر يا مُوَل الجيش المُقَدَّر
اتكَلَم للجهاد يَزْدُرُ وَيُنَاكِي فِي الحَائِثِينَ¹⁴.

ويواصل أطفال الثورة وصف المجاهدين ولباسهم وطريقة مشيهم في انتظام دقيق، وفي ذلك كله تعطش من الطفل لكي يصبح في مستوى هؤلاء :

يا مُجَد يا الجُنْدِي والنجمة والهلال تَقْدِي
والنجمة والهلال تَقْدِي قالب وَجُهُو للجهاد.
ياسَعْدِي نَصْرُوا لَعْلَام رَاهم يَمَشُو بالَنْطَام
رَاهم يَمَشُو بالَنْطَام وَيُنْتَقُوا فِي الحَائِثِينَ¹⁵.

القيم الوطنية وترسيخها في أدب الطفل الجزائري: الحكاية الشعبية التاريخية وقصص الثورة منطقة الونشريس نموذجاً.

من خلال ما ذكرنا يتضح الدور الخطير الذي تضطلع به الأغنية الشعبية الثورية، التي تتخذ الطابع الحكائي لأن " الشعر الغنائي للأطفال يتخذ شكل الحكاية أو شكل الأنشودة، ولما كانت الأنشودة هي إفراغ مباشر للشحنات العاطفية في تشكيلات موسيقية ساحرة... كانت الأنشودة أقدم وجوداً وأقرب إلى استمالة للطفل في مرحلته البكرة"16

ب/ صورة المستدمر الفرنسي والحركي لدى الطفل الجزائري من خلال الأغنية الشعبية الثورية:

لا تخلو الأنشودة الثورية من وصف ملاحم المجاهدين، وتصديهم لأعتى قوة استدمارية آنذاك، فبالإضافة إلى وصف ضراوة المعارك الدائرة بين جنود جيش التحرير وجيش الاستدمار الفرنسي، وكيف تتكبد قوات المستدمر الحسائر الفادحة في الأرواح والعتاد، صورت هذه الحكايات الشعبية الغنائية وحشية جنود الاحتلال واقترافهم لأبشع الجرائم في حق العزل من الأطفال والنساء والشيوخ، مع التذكير دائماً بعدالة القضية الجزائرية وشرعيتها.

ومن بين هذه الأناشيد التي كان يرددتها أطفال الثورة، نشيد يصف الإبادة التي تعرض لها جيش الاستعمار الفرنسي في أحد جبال الونشريس على يد بواصل جيش التحرير الوطني:

وَأَرْسَنِينَ يَا سَعْدِي بِيك حَلَنْجَلًا مَا صَاير بِيك
دَمَ الْبَارَا سَاير بِيك ثَمَّا مَرْدُومِين¹⁷.

وعلى نفس المنوال تسير حكاية شعبية غنائية أخرى لطالما ردها أطفال الثورة، وهي تصف هجوم كتيبة من المجاهدين على ثكنات ومراكز العدو، وتسجل الأغنية الشعبية الملحمية الكبيرة المتمثلة في الهجوم على معتقل " بوفيس " بأولاد فارس بمدينة الأصنام يومها، فأجلوا من بداخله من المسجونين، وغنموا أسلحة معتبرة وعادوا إلى عرينهم سالمين:

حَشُو لُبُوفِيس وَالظَّلْمَةَ وَالذَّخْمِيس
صَرَبُو الْبُولِيس وَدَاوَهَا شَرْعِيَّة
حَشُو لِأَصَاص صَابُو الْحَرْكِي عَسَاس
صَرَبُوهُ بَرَصَاص وَدَاوُ الْمَالِيَّة
حَشُو الْمَدِينَةَ وَحَشُوهَا بِالسِّيَارَةَ
قَطَعُو الْخَيْطَانَ وَرَيْتَاوُ الطَّيَارَةَ
قَطَعُو الْخَيْطَانَ أَوْلَاد الْعَرَبِيَّة¹⁸.

وفي معرض آخر تعنى الطفل الجزائري بانتصارات أبطاله المجاهدين في أغنية شعبية تبدو فيها شحنة السخرية جلية بجنود الاستدمار بعدما وصفوا بالبناات، دليل على جنبهم ونعومتهم التي لا تؤهلهم لخوض معارك ضد رجال أشاوس بوزن جنود جيش التحرير الوطني:

يَا حَمَامَ وَآيَ طَائِرٍ وَالسَّلَامَ عَلَى الْجَزَائِرِ
جَيْشُ فَرَنْسَا رَاهُو حَايِرٌ بَاقِي فِي التَّنْدِيرِ
خَائِفًا مِنَ الْإِشْتِبَاكَاتِ تَتَقَدَّمُ بِالْكُوبَيْتِرَاتِ
بُنَاتُ فَرَانْسَا قَاعَ فَنَاتِ يَمُوتُو بِالْأَلْفِينِ

فَرَانَسَا الغَدَّارَةَ تَضْرِبُ فِينَا بِالطَّيَّارَةِ
اخْنَا عَرَبٌ مَانَاشْ أَنْصَارِي نَائِضِينَ عَلَى الْحُرِّيَّةِ¹⁹.

أما عن الحركي أو العميل الذي باع وطنه وتنكر لأمة الرؤوم، وانسلخ عن دينه وهويته، فقد كانت له الأنشودة الشعبية بالمرصاد، فقلّبت على سفود السخرية والتهكم، إذ لم يكن هناك وصف أقيح ولا أقدر ولا أشنع في نفوس الأطفال من وصف "الحركي" ولربما ثارت ثائرة هذا الطفل بسبب وصفه بالحركي من طرف قرين له على سبيل المزاح، وقد تفسد هذه الكلمة المودة بينهما إلى زمن بعيد. ولازلنا نذكر ونحن صغار عندما كنا نتقاسم أدوار اللعب، وكل منا يتهافت على من يقوم بدور جندي جيش التحرير، ومن لم يسعفه ذلك يرضى بدور فدائي أو مسبل، بيد أن الجميع كان يعترف على تقمص شخصية العميل، أو الحركي، حتى إذا ما وقعت القرعة على أحدهم يفتح مجالاً للمفاوضة، ولربما فضل القيام بدور جندي فرنسي على أن يقوم بدور حركي.

هذا ما اخترن داخل العقل الباطن للطفل الجزائري من ازدراء وتحقير للعملاء، ولعل من أشهر الأناشيد الغنائية الثورية التي طارت شهرتها في منطقة الونشريس إبان ثورة التحرير المباركة، أنشودة الحركي التي تداولها الأطفال فما بينهم، وفيها تهديد ووعيد للحركي وتبشير بسوء العاقبة والمآل:

شُوفَ الحُرْكَي تَأَلَّفَ رَائِبُو كِبِيَّةَ قَلْبُو مَا يَصْرَأُو
كِبِيَّةَ قَلْبُو مَا يَصْرَأُو فِي دِينِ المَجاهدين
والله والله يا الحُرْكَي وَاخْدَمَ عَلَى جِهَتَيْنِ
هذه الرسالة جَاتكَ من عند المَجاهدين
يا الحركي رَاك مَّارَكِي فِي الشَّعْبَةِ رَاك مَوْكِي²⁰

وكان لأحد أشهر العملاء بمنطقة الونشريس النقيب الأكبر من سخرية الأطفال، من خلال ترديدهم لتلك الأناشيد التي تعنته بسبب الحال والمآل، بعدما نصب الثورة والشعب الجزائري العدا، و أخذته العزة بالإثم، ووقف إلى جانب المستدمر الفرنسي، فكان جنود جيش التحرير يقاتلون على أكثر من جبهة في منطقة الونشريس، فجيش الاستدمار من جهة، وقوات العميل الخائن الباشاغا بوعلام من جهة ثانية، وقوات العميل كوبيس من جهة أخرى²¹

شُوفُو بَاشَا شَيْنَ الحَالَةِ رَاه يَنْظُمُ فِي الرِّجَالَةِ
يَوْمَ الحَقِّ يَمُوتُ قُبَالَةَ فِي دِينِ المَجاهدين²²

ومع بزوغ فجر الاستقلال، أبت الأغنية الشعبية الثورية إلا أن تسجل هذا الميلاد الجديد لأمة كان قد أتى عليها حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا، فقد انتظم أطفال الجزائر في صفوف تشبه إلى حد ما صفوف جنود جيش التحرير وهم يدخلون المدن الجزائرية بعد سبع ونصف شداد، انتظم الأطفال الصغار وهم ينشدون من جبالنا طلع صوت الأحرار، وقسما بالنازلات الماحقات، وبين الفينة والأخرى يشدهم الحنين إلى أغانيهم الشعبية فتصدح حناجرهم بهذه الأنشودة الشعبية، وهي تصف دخول جنود جيش التحرير، ورفع العلم الوطني خفاقا في السماء، وأضحت المباني الفخمة التي ترك المعمرون ملكا للشعب،

القيم الوطنية وترسيخها في أدب الطفل الجزائري: الحكاية الشعبية التاريخية وقصص الثورة منطقة الونشريس نموذجاً.

هذا الشعب الذي أجبره الاستعمار الفرنسي على تقاسم غرفة النوم مع مواشيه ما يزيد عن مئة وثلاثين سنة.

تقول الأنشودة الشعبية على لسان طفل جزائري:

يَا سَعْدِي زَانِي فَرَحَانِ لِيَوْمَا جَاؤُ السَّاجِعِينَ
مَبْرُوكٌ عَلَيْنَا ثَوْرَتُنَا رَجُوهَا المَجَاهِدِينَ
يَا سَعْدِي كَيْ دَارُوا حَصَلَةَ هَا ذُوكُ المَجَاهِدِينَ
يَا سَعْدِي كَيْ دَارُوا حَصَلَةَ وَدَاؤُ البَنِيَانِ زِينِ
يَا سَعْدِي كَيْ دَارُوا حَصَلَةَ هَا ذُوكُ المَجَاهِدِينَ
يَا سَعْدِي كَيْ دَارُوا حَصَلَةَ فِي الصَّرْبِ يَجُوقَا فَا فَرَزِينِ 23

وفي ختام هذه الورقة البحثية نؤكد على الدور الكبير الذي اضطلعت به الحكاية الشعبية الثورية، والأغنية الشعبية الثورية- في منطقة الونشريس وفي باقي مناطق الوطن- في زرع القيم الوطنية، والمثل السامية، والمبادئ الإنسانية النبيلة في نفوس أطفال الثورة، وطعمتهم بشحنات وطنية كثيفة، حتى أصبح مجرد ذكر الثورة التحريرية لهؤلاء الأطفال ملازماً لذرف الدموع التي تنسح من مقلهم على الرغم منهم، وكلهم فخر واعتزاز بمآثر وبطولات الثورة المجيدة، وبفضل ما اخترنته وسجلته ذاكرتهم في سن الطفولة، من هذين اللونين الأدبيين فإننا نترنم اليوم بهذه الأناشيد والحكايات الوطنية الثورية، فالأغنية الشعبية " مرآة تنعكس عليها عواطف الناس وطبيعتهم وتفكيرهم إنها ترتبط بأحاسيسهم، وتتواصل مع مشاعرهم، وتميزها بالنعمة يجعلها تنتشر وتتغلغل بينهم 24.

إنّ الحكاية الشعبية الثورية، والأغنية الشعبية الثورية، فضلاً عن إسهامهما في تنمية الحس الفني، والتذوق الجمالي لدى الطفل، فإنهما وسيلتان تربويتان في بناء شخصية سوية متكاملة متشعبة بالقيم الوطنية والإنسانية.

الهوامش:

- 01- إسماعيل عبد الفتاح، رانية حسن أبو العينين: معايير قياس جودة كتب الأطفال، العربي للنشر والتوزيع، 2001، ص 30
- 02- علي الحديدي: في أدب الأطفال- مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة مصر، 1976- ص 189.
- 03- مفتاح مجّد ديب: مقدمة في أدب الأطفال- الدار الدولية للنشر والتوزيع-مصر/كندا- ط. 01- 1995- ص 144.
- 04- مفدي زكرياء: إلياذة الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- ط. 02- 1987- ص 20.
- 05- مفدي زكرياء: اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، ص 51. البيت فيه معارضة لبيت الشاعر عمرو بن كلثوم في معلقته: إذا بلغ الفظام لنا صبي / تحر له الجبابة ساجدينا.
- 06- نقلا عن الأستاذ عبد القادر زغارية. باحث مهتم بالأدب الشعبي بمنطقة الونشريس.
- 07- المصدر نفسه.
- 08- مجلة الموقف الأدبي السورية- حوار مع سليمان العيسى-العدد 10- ص 72.
- 09- نقلا عما تحفظه والدتي حفظها الله- ربيع بختة من مواليد سنة 1955-لرجام-تيسمسيلت- وهي من بين الأطفال الذين عايشوا الثورة التحريرية المباركة في عمق جبال الونشريس.
- 10- المصدر نفسه.
- 11- ينظر مجّد عباس: نصر بلا ثمن نصر بلا ثمن 1954-1962، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، ص 209/208/207.

- 12- نقلا عن الوالدة حفظها الله.
- 13- المصدر نفسه.
- 14- المصدر نفسه.
- 15- المصدر نفسه.
- 16- أنس داود: أدب الأطفال في البدء كانت الأنشودة، دار المعارف، مصر، د.ط، 1993، ص 38/37.
- 17- نقلا عن الوالدة حفظها الله.
- 18- المصدر نفسه.
- 19- المصدر نفسه
- 20- المصدر نفسه
- 21- لزويد من التفصيل ينظر: مُجَدَّ عباس: نصر بلا ثمن 1954-1962، ص 41/417/416/415/414
- 22- نقلا عن الوالدة حفظها الله.
- 23- المصدر نفسه.
- 24- العيد جلولي: النص الشعري الموجه لأطفال في الجزائر، الجزائر، 2008، ص 126.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1_ إسماعيل عبد الفتاح، رانية حسن أبو العينين: معايير قياس جودة كتب الأطفال، العربي للنشر والتوزيع، 2001.
- 2_ العيد جلولي: النص الشعري الموجه لأطفال في الجزائر، الجزائر، 2008.
- 3_ أنس داود: أدب الأطفال في البدء كانت الأنشودة، دار المعارف، مصر، د.ط، 1993.
- 4_ ربيع بختة من مواليد سنة 1955-لرجام-تيسمسيلت- وهي من بين الأطفال الذين عايشوا الثورة التحريرية المباركة في عمق جبال الونشريس- تسجيل- بالمتزل العائلي- نوفمبر 2014.
- 5_ سليمان العيسى ، مجلة الموقف الأدبي السورية، العدد 10.
- 6_ عبد القادر زغارية: باحث مهتم بالأدب الشعبي بمنطقة الونشريس- مقابلة وتسجيل- ثانوية مُجَدَّ بلال- نوفمبر 2014.
- 7_ علي الحديدي: في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة مصر، 1976.
- 8_ مُجَدَّ عباس: نصر بلا ثمن نصر بلا ثمن 1954-1962، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007
- 9_ مفتاح مُجَدَّ ديب: مقدمة في أدب الأطفال، الدار الدولية للنشر والتوزيع، مصر/كندا، ط.01، 1995.
- 10_ مفدي زكرياء: اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر.
- 11_ مفدي زكرياء: إلباذاة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط.02، 1987.